

## مقاربة معرفية في منهجة دراسة المرأة

(مكانتها الوجودية ودورها في عالم الإنسان)

عدنان المسيني (\*)

### ملخص البحث

يروم الباحث في ورقته البحثية مقارنة عنصر المرأة من منظور آخر تكمن في مكانتها الوجودية بعيداً عما يشاع من دراسات لظلم للمرأة المقتصرة على الجانب النفسي والجسدي، بل تعدى ذلك إلى الجوانب المعرفية طراً، ثم اشترك ظالموها بمهرجانٍ ذكوريٍّ لذبح مكانة المرأة الوجودية ومسحها من عالم الناطقية، ليحيلوها إلى حيوانٍ مبهم الفصل من بين الماهيات، مجهول الحد والرسم، وهذه محاولة لتلمس طريق الخلاص من مأزق الاختناق في حفرة الرجم، إذ انطلق البحث على محورين؛ الأول تمثل بالتنظير المعرفي وقد أشتمل على نظرية المنهاجية التكاملية التوحيدية، واختزالات التخاسر الجسدية (الذكورة والأنوثة)، واستخلاف الإنسان واستحقاقاته التوزيعية بين الرجل والمرأة، والامتحان والابتلاء، والتسخير وانعكاساته بين الرجل والمرأة والمرأة والسؤال الحضاري المعرفي، والآخر تمثل بالتنظير الفلسفي ويشتمل على التراث الفلسفي المسيحي.

(\*) طالب دكتوراه في جامعة المصطفى العالمية.



لم يكن ظلم المرأة مقتصرًا على الجانب النفسي والجسدي، بل تعدّى ذينك إلى الجوانب المعرفيّة طرّاً، ثمّ اشترك ظالموها بمهرجانٍ ذكوريٍّ لذبح مكانة المرأة الوجوديّة ومسحها من عالم الناطقيّة، ليحيلوها إلى حيوانٍ مبهم الفصل من بين الماهيّات، مجهول الحدّ والرسم، وهذه محاولةٌ لتلمس طريق الخلاص من مأزق الاختناق في حفرة الرجم.

### المبحث الأول: التنظير المعرفي

أغلب من كتب حول المرأة افتقرت كتابته لمستندٍ معرفيٍّ رصينٍ يكون شاملاً لجميع جزئيات موضوع البحث أو أجزائه، والانطلاق من القناعات الذاتية في كلّ بحثٍ يقود إلى الوقوع في ما لا يحمد من الأحكام الجزافية. إنّ نظريّة المعرفة تنظّم مجمل الفكر الإنساني، فتضمن للفكر عدم الوقوع في التخبّط على المستوى النظري والعملي.

بخلاف القفز على الحقائق الأنطولوجيّة والسوسيولوجيّة الذي هو سمةٌ من سمات الفرد والمجتمع المفتقرين إلى النظريّة المعرفيّة المحدّدة، فلا طريقٌ واضحٌ، ولا نورٌ يسطع في آخر النفق كما يقال. بل إنّ الانسداد الفكري والافراط والتفريط هو خاتمة الغصّ عن اتّباع نظريّة في المعرفة. إنّ مشكلة البحث في قضية ما هي إمّا بعدم اتّباع نظريّة في المعرفة أو باتّباع نظريّة معرفيّة خاطئة.

وقضيتنا محلّ البحث تعتبر من أكثر الموضوعات التي وقع فيها الجدل



## مقاربة معرفية في منهجة دراسة المرأة

والصراع والأخذ والردّ والتفكير والتكفير. فصار من الضروري اتباع النظرية المعرفية الواضحة المعالم والتي لا يضيع فيها سالكٌ ولا يتيه فيها باحثٌ.

تساؤلٌ: هل نحن بحاجةٍ إلى الاطلاع على التراث الغربي والحركة

النسوية ( فيمينيسم) من أجل تفعيل عملية إنصاف المرأة في الشرق؟

والجواب: لسنا بحاجةٍ إلى ذلك فيما لو كانت لدينا نظريةً معرفيةً متكاملةً

تنسج النصّ والعقل في ثوبٍ واحدٍ.

وهناك فرقٌ بين النسوية وتيار النسوية الذي له كتابه وأدواته وأجهته في

فهم النصوص الدينية والميتافيزيقيا وبين التنظير الملتزم الذي يحاول وضع

الأمور في محلّها الطبيعي، القائم على أساس السياقات المعترف بها في فهم

النصّ وشرح الميتافيزيقيا. ولكن لا نجازف إن قلنا إن كتابات القرن التاسع

عشر وبداية القرن العشرين، أمثال: كتاب تحرير المرأة لقسام أمين وغيره،

شحذت الأفكار والمهم لمن لديهم حسّ الانصاف والتدين، وطلاب الحقّ

كي يبدأ التنظير المعاكس الملتزم في الدفاع عن المرأة، إذ كانت بعض العادات

والأنماط الاجتماعية قد صارت جزءاً من الدين زوراً ووهماً مثل الحرمان من

التعليم.

## نظرية المنهاجية التكاملية التوحيدية

لقد أثرت نظرية المنهاجية التكاملية في أن يكون البحث المعرفي في

موضوع البحث مبنياً على أساسٍ من نظريةٍ شاملةٍ ممنهجةٍ وفق التكاملية

التوحيدية الإسلامية المنطلقة من النظرة التكاملية للوجود، والتي قام الدليل

الحسي والعقلي والعرفاني الشهودي عليها، فموضوع البحث هو من ضمن

الموضوعات الحياتية التي يتمّ التنظير لها عادةً من زاويةٍ أحادية. فالنظرة



التكاملية الهدفية المنطلقة من وعي كينونة الحياة من حيث الفعل والفاعل والغاية تسهل الإجابة على جميع الأسئلة الفلسفية.

إنَّ أحد الأسباب الموضوعية التي ساهمت مساهمةً كبيرةً في اختلال المنهجية الأستيمولوجية والأنطولوجية والأكسيولوجية على مستوى المعرفة الإسلامية اجتماعياً، وسياسياً، واقتصادياً، وثقافياً، تتمثل في الرؤية التجزيئية للمنظورات الاستكشافية والاجتهادية الفقهية للفقهاء والمنظرين والمفكرين الإسلاميين، أي: الفقه الفروعى النسبي سواءً الموروث أو المعاصر. وهذا ما جعل الفكر الإسلامى يعيش فراغاً على مستوى ايديولوجيات، ومذاهبات، ومنظومات ثقافية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية من جهة، ومن جهة أخرى يغفل عن كليّات القرآن، وروح الدين، والفقه، والمعرفة الإسلامية، مقابل الانغماس والاستغراق في جزئيات الفروع على حساب الكليّات، والجوهريّات المعرفية، والوجودية، والأخلاقية، والقيمية. وقد تمّ ذلك على حساب نظرية المعرفة وفقه الفلسفة والاجتماع والاقتصاد والسياسة، وعلى حساب روح الدين والإسلام ونظرية الاستخلاف الإلهي وحقيقة الانتظار لكيونة الكائن البشرى. فالرؤية الإسلامية الأصيلة لا بد لها من الارتكاز على أساس تفقيه كليّ لمنهجية شمولية توحيدية وتكاملية تراتبية بغية تفقيه حياة الأمة<sup>(١)</sup>.

إنَّ هذه الإنطلاقة في المعرفة، أو بعبارة أخرى: إنَّ المعرفة المنطلقة من هذا السطح المعرفى المتناغم، يوفر أرضية الانسجام بين جميع المفاهيم، والقضايا، ومفردات العلوم، ومسائل العلوم، وتجعل الأحكام التصديقية في كلّ ثيمات الكون متناسقةً مترتبةً متهندسةً وفق سياقات العلة والمعلول، فكلّ شيءٍ

## مقاربة معرفية في منهجة دراسة المرأة

يؤدّي إلى كلّ شيء، وكلّ جزءٍ من أجزاء العالم يرفد جزءاً آخر وإن كانا متباعدين زماناً ومكاناً. وإذا سار الباحثون في جميع العلوم على هذا المنوال ستتمّ سيرورة العلوم والإنسانية بشكلٍ أعداديّ رياضيٍّ متراتبٍ. فإنّ أحد الأسباب الموضوعيّة التي ساهمت مساهمةً كبيرةً في اختلال المنهجية الابستمولوجية والانطولوجية والاكسيولوجية والاستطبيقية على مستوى المعرفة الإسلامية حضارياً، وتاريخياً، اجتماعياً، سياسياً، واقتصادياً، وثقافياً، يتمثل في الرؤية التجزيئية للمنظورات الاستكشافية والاجتهادية الفقهيّة للفقهاء والمنظرين والمفكرين والفلاسفة والعرفاء الإسلاميين، أي: الفقه الفروعى النسبى سواء الموروث أو المعاصر... فالرؤية الإسلامية الأصيلة لا بدّ لها من الارتكاز على أساس تفيقه استخلافيٍّ وانتظاريٍّ وخاتميٍّ وولائيٍّ كليٍّ لمنهجية شموليةٍ توحيديةٍ وتكامليّةٍ تراتبيةٍ بغية تفيقه حياة الأمة<sup>(٢)</sup>.

وبناءً على مبدأ النظام الأصلح، فالأصل التعادل التوازني التناظري فيما بين الرجل والمرأة من حيث أصل الاستخلاف، والإعمار، والواجبات، والمسؤوليات، والتكاليف، والحقوق من جهة، وأصل التباين والتغير المتغيّر في الشكل، والقوّة، والقدرة الجسديّة، والروحيّة العاطفيّة والحنونيّة لكلّ منهما من جهة ثانية، وأصل التكامل والتعايش والتعاون والتعارف والتساكن والتلاطف والتحنن والملامسة والملابسة من جهة ثالثة، وذلك وفق معادلات تكاملية ارتقائية، وعلائق ديمومية دينامية في توزيعٍ وتقسيمٍ وترتيبٍ للعمل، وتصنيفٍ وتمييزٍ وتخصيصٍ للوظائف، وتشطيرٍ للمهام فيما بينها كلّ ذلك في سياقٍ يؤدّي إلى التجميع والتوحيد الغائي المرسوم للحياة الزوجية كنواة للأسرة والمجتمع والأمة في الكون والوجود.



فالرجل والمرأة كلاهما مخلوقان من قِبَلِ الله تعالى، ضروريان لوجود الحياة البشرية واستمرارها، ولا يمكن تصوّر حياة إنسانيّة على الأرض بدون أحدهما؛ فالرجل والمرأة متلازمان مثل كفتيّ الميزان، أو مثل الشمس والقمر أو النهار والليل في الحياة الأرضية. ولكن هذا لا يعني التساوي المطلق أو التساوق التام بالمفهوم الفلسفي؛ أي: التطابق التام والمطلق من جميع الجهات بين الرجل والمرأة؛ فإنّ دعوى التساوي أو التطابق أو التساوق تصادم حقائق بنية كينونة الرجل والمرأة من جهة، وتعارض الحياة السويّة التكامليّة التوازنيّة التعادليّة الديموميّة من جهة ثانية. فللرجل دورٌ لا تقوم به المرأة، وللمرأة دورٌ لا ينهض به الرجل، وهناك أدوارٌ ووظائف مشتركةٌ تتسع وتستطيل وتمتدّ أو تقتصر وتضيق وتنحصر تبعاً لتطوّر سيرورة الحياة والظروف الزمانيّة والمكانيّة المحيطة بها، وتبعاً لتغيّر موضوعات الحياة الزوجيّة التي تتبدل بنيتها ومكوّناتها الجوانبيّة، مع الحفاظ على الحد الأدنى والذي هو غير قابلٍ للتغيير والتحويل والتبديل، ومجالاته وموضوعاته جدّاً محدودةً<sup>(٣)</sup>.

فالعالم تحكمه العليّة والتلازم، فهو كائنٌ إلهيٌّ ذو خريطةٍ انطولوجيّةٍ وابتيمولوجيّةٍ واكسيولوجيّةٍ واستيطقيّةٍ شاملةٍ، وعلاقاتٍ بنيويّةٍ تركيبيةٍ وتكوينيّةٍ وظيفيّةٍ وغائيّةٍ، متطابق الأجزاء<sup>(٤)</sup>.

والعرفاء يسمّون العالم (الإنسان الكبير)<sup>(٥)</sup> وهو كلّ ما سوى الله، وليس إلاّ الممكنات سواء وجدت أم لم توجد، فإنّها بذاتها علامةٌ على علمنا أو على العلم بواجب الوجود لذاته<sup>(٦)</sup>، وهنا بالذات الربط بين الإنسان وعالم الوجود؛ لأنّ الإنسان الكامل مشتملٌ على جميع حقائق العالم، فهو عالمٌ كليٌّ ومظهرٌ لاسم الرحمن...



## مقاربة معرفية في منهجة دراسة المرأة

ونتيجةً لاشتغالها تفصيلاً على جميع جزئيات الأمور التي يحتويها العقل الأول (الحقيقة المحمدية)، وبما أن كل خلجة من خلجات العالم وحركاته مظهرٌ لاسم الله، بل جميع الأسماء الإلهية، فيعدّ كل فردٍ من الإنسانية علامةً لجميع الأسماء الإلهية<sup>(٧)</sup>.

فالإنسان - طبقاً لما ذهب إليه ابن عربي واتباعه، وحسبما ورد في عباراتهم وأقوالهم - صورةٌ إلهيةٌ، وشريف المنزلة، ورفيع المرتبة، والعالم الأصغر الذي هو روح العالم الأكبر وعلته وسببه، وأكمل الموجودات، وأنه خلقٌ وحقٌّ، والمختصر الشريف الجامع لجميع معاني العالم الكبير، والنسخة الجامعة لجميع الأشياء الموجودة في العالم الكبير، ولجميع الأسماء الموجودة في الحضرة الإلهية، والكون الجامع، وكل ما في عالم الأكوان مسخرٌ له، وكل ما في العالم ملخّصٌ فيه، وكبيرٌ جداً في العالم، وعظيمٌ رغم صغره قياساً إلى كل العالم، فهو يساوي بمفرده كل العالم ويضاهي جميع الموجودات، وأكمل مجالي الحق، لتجلي الحق تعالى - المتجلي في جميع صور العالم - في الإنسان على أتم وجهٍ وأكمل صورةٍ، ومجمع جميع حقائق ومراتب الوجود حيث تنعكس في مراتب وجوده جميع كمالات العالم الأكبر مع جميع كمالات الحضرة الإلهية الأسمائية والصفاتية، في القصد الأول، وفي الإيجاد الآخر، بصورة الظاهر، وبسورة (منزلة) الباطن. وهو في نسبه إلى الله عبداً وفي نسبه إلى العالم رباً. ولهذا أصبح خليفة الله في الأرض وأبناؤه خلفاءه، وأفضل من أجزاء العالم، بل ويفوق الملائكة والكروبيين مقاماً؛ لأن الملائكة مجرد مظهر صفات جمل الحق، في حين أن الإنسان مظهر صفات الجمال والجلال معاً<sup>(٨)</sup>.



### اختلالات التخاسر الجسديّة ( الذكورة والأنوثة)

يمثل الحسّ نمطاً من أنماط التفكير المعرفي، وعلى الرغم من أهميته إلا أنه يوفر جانباً سطحياً من المعرفة، حيث ارتبط الحسّ بالنظرية المادية التي تفسّر العالم تفسيراً مادياً بعيداً عن الميتافيزيقيا، ويحتلّ رتبة متقدمة على مستوى العقلين النظري والعملي في الدراسات التجريبية.

والتفكير المرتبط بالحسّ تفكيراً أولياً ساذجاً عامياً يحتل المساحة الأكبر من عقول عوام الناس وخواصهم بدرجات تشكيكية متفاوتة، فيريد الحسّي أن يعرف كل شيء بالحسّ، وينظر لكل شيء بالحسّ، ويفسّر كل شيء تفسيراً حسياً مادياً، ومنها مجموعة العلاقات الإنسانية، ولاسيما علاقة الرجل بالمرأة. فلقد فسّروا هذه العلاقة على أساس قاعدة الجسد والاختلاف الجسدي، فأضحت العلة الغائية الإلهية لهذا الاختلاف غائبة، وحلّت محلّها النظرة الاستعلائية الذكورية، وفسّروا رقة المرأة ضعفاً وخشونة الرجل قوة جبارة استعبادية. وانعكس هذا الفهم بين القوي والضعيف على تفسير مجمل الكيان الاجتماعي من أسرة، ودولة، ونظام سياسي واقتصادي، وغير ذلك.

ويعتبر الجسد معياراً أساسياً يكرّس من خلاله النظام الاجتماعي الهيمنة الذكورية، وذلك من خلال التمييز البيولوجي بين الجنسين، أي: بين الرجل والمرأة، وبالتحديد بين الجسد الذكوري والجسد الأنثوي، وهذا ما يؤكد بيار بورديو في قوله: إنّ تذكير الجسد الذكوري، وتأنيث الجسد الأنثوي، هي مهام عظيمة لا نهاية لها بمعنى من المعاني، والتي تتطلّب دوماً على وجه التقريب - اليوم أكثر من أيّ وقت مضى بالتأكيد - إنفاقاً هائلاً من الوقت والمجهودات تحدّد



## مقاربة معرفية في منهجة دراسة المرأة

استبداناً لعلاقة الهيمنة، كذلك طبعت ومن خلال ترويض الأجساد تفرض الاستعدادات الأشدّ جوهريّةً، تلك التي تجعل الأجساد الأكثر ملائمةً لاستعمال الذكورة ميّالةً وقادرةً على الدخول في الألعاب الاجتماعيّة، السياسة، والأعمال، والعلم... إلخ.

إنّ التقليد الاجتماعي يربط بين الشجاعة الأخلاقيّة والجسديّة وبين الرجولة، فالبناء الاجتماعي يميّز بين الرجل والمرأة من خلال التمييز بين الأجساد، وبالتحديد بين الأعضاء الجنسيّة ووظيفتها، ويعطيها بعداً رمزياً يكرّس هيمنة الذكر على الأنثى، فيتجاوز بذلك الوظيفة البيولوجيّة لهذه الأعضاء إلى التأكيد على فكرة تمرکز وهيمنة الذكر على الأنثى، حتّى أنّ فعل ممارسة العلاقة الجنسيّة أصبح ينظر إليه على أنّه مظهرٌ من مظاهر هذه الهيمنة وليس كتجربةٍ حميميّة<sup>(٩)</sup>. فالمركزيّة الذكوريّة تفرض نفسها في الذهنيّة العامّة للعلاقات بين الرجل والمرأة من خلال البناء البيولوجي للجسد للطرفين، وأصبح جزءاً أولياً في التربية الاجتماعيّة، وأضحت العلاقة الجنسيّة تعبيراً عن الرغبة في الهيمنة. وكم فرق بين هذا الفهم الحسي للعلاقة بين الجنسين وبين الفهم العقلي والوحياني الذي يعبر عنه القرآن الكريم بقول الباري: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾<sup>(١٠)</sup>، فنلاحظ مدى الحميميّة في تعبير اللباس الذي يحمل دلالة الحماية والاحتضان والحنان والعطف من كلّ طرفٍ تجاه الطرف الآخر، فهو تعبيرٌ غايةً في الروحانيّة، وهناك دلالةٌ رمزيّةٌ واضحةٌ في الابتداء بالنساء أوّلاً بقوله تعالى: ﴿هُنَّ﴾.

والآية الأخرى التي تفيض بالفهم الميتافيزيقي الغائي الإلهي ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي



ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾، وهذه الآية من الاعجاز في الاعجاز، فالقرآن معجزة وهذه الآية من الاعجاز الاجتماعي والأسري، فأشار إلى أن المرأة من نفس الرجل، والرجل من نفس المرأة طالما أن الخطاب موجّه لجميع المؤمنين من الرجال والنساء، ثم استخدم السكن بما يحمل من دلالات الأمن والاطمئنان الروحي والمادي والهدوء النفسي، ثم بين القرآن أن هناك جعلاً تكوينياً للمودة والرحمة والحب والحنان، ولم يستخدم القرآن الكريم مفاهيم حسيّة وماديّة وجنسيّة اعتلائيّة وديكتاتوريّة.

إن الاختلاف البدني بين الجنسين هو اختلافٌ وظيفيٌ تكوينيٌ غايته ساميةٌ من أجل بناء حضارة الإنسان الإلهي على الأرض الذي يحتاج للتكاثر، وليس من أجل إقامة هيمنة الذكور، إلا أن البشرية لم تفهم على الأعم الأغلب هذه الغاية السامية، وانحرفت عن مقصد الأنبياء، وقبّبت لنفسها مفاهيم حامت حولها مبتعدة عن المسارات الإلهية.

### استخلاف الإنسان واستحقاقه التوزيعية بين الرجل والمرأة

تقوم الحياة على الأرض على أساس منهج الاستخلاف الإلهي للإنسان، وهذا الاستخلاف انحصر في الإنسان لما يتضمنه من قيم لا توجد في كائن غيره، فهناك ما يشبه العقد الوجودي بين الخالق والإنسان.

والسؤال الأساسي هو: هل إن الاستخلاف منحصر في الرجل؟ هل إن الذكورية لها دخالة في تقييد الخلافة الانطولوجية العامة؟

في الواقع، المتبّع لا يجد ذلك، بل يجد العكس؛ لأن التنمية المستدامة الأنطولوجية لا تقتصر على الرجل، وليست خلافة الكون أمراً أسرياً لتأتي مسألة قيمومة الرجل على المرأة، بل هي شأنٌ كونيٌّ إلهيٌّ. وللعرفاء في ذلك

## مقاربة معرفية في منهجة دراسة المرأة

برهانهم المنطلق من رؤيتهم للعالم نظرةً تختلف عن غيرهم، فالإنسان من وجهة نظر العرفاء خليفة الله، ولهذا فهو مسؤولٌ بسبب ما لديه من إرادة حرة، وطريق الكمال والإنسانية مفتوحٌ بوجه الجميع. وليس بمقدور عقبة أن تحول دون إنطلاق أي أحدٍ فيه، ما لم ينصرف بإرادته عن ذلك. صحيحٌ أن الله تعالى خلق النوع الإنساني على شكل رجلٍ وامرأة، غير أن جنس أيٍّ منهما غير مؤثّر قط على مقام الإنسان كخليفةٍ لله تعالى، فنسبة الجنس للإنسان في هذا المضمار كنسبة العرض إلى الجوهر. والعالم من وجهة النظر العرفانية بمثابة تجلٍ للأسماء الإلهية، ولا وجود للتكرّر في هذه التجليات، مع كمون حكمة ما خلف كل تجلٍ منها، ولذلك بالإمكان التساؤل: ما هو الاسم الإلهي الذي تتجلّى به المرأة في الخلقة؟ وما هو دورها الذي ينسجم مع هذا التجلي في مصنع الوجود<sup>(١٢)</sup>.

إن الخلافة في الأرض ليست للشخص بل للشخصية، أي: إن الخلافة لمقام الإنسانية، وهذا المقام يتساوى فيه الذكر والأنثى. ولقد أوضح الشيخ جوادي آملي ذلك في مسألة الخطاب الإلهي في آيات آدم والخلق: (إن الخطاب وإن كان موجهاً إلى آدم، وأحياناً بصيغة الضمير المفرد أو المذكر وما شابه ذلك، إلا أن ذلك لا يعني أن الخلافة أو صفة السجود له تختصّ بآدم أو بالرجل... أمّا قوله: (وحملها الإنسان)، فالإنسان لا يختصّ بالذكر ولا بالمؤنث. إن الإنسان قادرٌ على إنجاز العمل الذي تعجز عنه الجبال والسموات والأرض. ولما كان الإنسان حائزاً على هذه المكانة المنيعة في الآية المبيّنة لمعرفة العلمية، فقد وصل بشكلٍ صريحٍ إلى هذه المنزلة في نهاية سورة الأحزاب، واستطاع بتلك الإمكانيات إنجاز عملٍ عجزت عنه السموات.



واستغل الإنسان تلك الطاقة فحمل عبء القرآن والولاية والمعرفة والدين وأمثالها<sup>(١٣)</sup>.

قسّم العرفاء مراحل السير والسلوك العرفاني إلى أربع مراحل، وهي: السفر من الخلق إلى الحق، والسفر من الحق إلى الخلق إلى الحق، والثالث هو السفر من الحق، والرابع من الخلق إلى الخلق بصحبة الحق<sup>(١٤)</sup>. والإنسان سواء كان رجلاً أو امرأةً فيه المقتضي لسلوك هذه الطرق الأربعة، وإذا كان من إشكالٍ فهو إنما يرد على الطريقتين الثالث والرابع؛ لأنّ فيهما قضية الولاية، أي: بمعنى المسؤولية التي تفرضها النبوة، ولكن السفر الثالث والرابع يمكن أن يتحققا بدون النبوة والرسالة؛ لأنّ الرجوع من الحق إلى الخلق والعودة من الوحدة إلى الكثرة، حتى وإن كانت غير مصحوبة بالنبوة الأنبائية والتعريفية، فإنّها لا تستلزم - أيضاً - النبوة والرسالة التشريعية. وعلى هذا فإنّ ما حرمت منه المرأة، وهو النبوة والرسالة التشريعية، ليس من لوازم الرجوع من الحق إلى الخلق، وأنّ ما تستلزمه هذه العودة، أي: النبوة الانبائية والتعريفية لا فرق فيه بين الرجل والمرأة. وقد أدّى هذا الخلط بين هذين الموضوعين العميقين إلى القول بحرمان المرأة من السفرين الثالث والرابع. والغرض هو أنّ رصيد النبوة والرسالة هي الولاية، ولا ميزة في الولاية بين الرجل والمرأة، بالرغم من وجود الفارق بين هذين الصنفين في بعض الآثار التنفيذية ألا وهي النبوة والرسالة التشريعية<sup>(١٥)</sup>.

وبعبارةٍ أخرى: إنّ مسألة الحرمان من الرسالة التشريعية بما تتضمنه من جوانب تنفيذية شاملة للمرأة والرجل على السواء طالما أنّ النبوة قد ختمت، وأمّا نيل الولاية فلا يقتصر على الرجال.

## مقاربة معرفية في منهجة دراسة المرأة

وهذه المسألة تعرف زواياها إن تم التعرف على الإنسان في النظرية المعرفية الإسلامية ومكانته في عالم الوجود، وقضية الخلافة التي ذكرنا جزءاً يسيراً منها تعطي ضوءاً على مكانة الإنسان في عالم الوجود. إن العلاقة النبوية التجاذبية التكاملية الانعكاسية القيمية بين الحدث الوجودي الكوني الكلي الشمولي وبين الخلافة والاستخلاف المدني الاجتماعي السوسيولوجي هي علاقة مستحكمة لها أوليات وتجاذبات تراتبية توحى بالتكامل في كل ثيمة من ثيمات الإنسانية، فالمرأة كما الرجل تسير وفق النظم الاستخلافي وفق ما يلي:

- التوحيد
- الإمامة
- الولاية
- العدالة
- المعاد
- الصراط المستقيم
- الخاتمة المحمدية
- الانتظارية المهدوية الموعودة
- الولاية الفقهية العامة المتصلة بالولاية الخاتمية والإمامية والربانية الإلهية
- الخيرية والفضيلة
- الجمالية والحب والعشق
- الغائية



• الحرية

• والعبادة والعبودية<sup>(١٦)</sup>.

فهذه الخريطة العامة للإنسانية المعينة في سيرورة نمطية، يجهلها الكثيرون بل الأكثر، لأنَّ الإنسانية غافلة عن المشهد الكوني الأنطولوجي الأبستمولوجي الأكسيولوجي الاستطقي الخلافي المعبر عن لوحة عمودية وافقية غائية تجمع بين العامل الميتافيزيقي والعامل الظهوري البراني الآني الطبيعي، هذه الخريطة للمرأة كما للرجل ولا فرق بين الطرفين في السير وفقها.

### الامتحان والابتلاء

ثمَّ إنَّ الامتحان الإلهي والابتلاء وكدَّ الاستكمال غير مقتصر على الرجل، ونشاهد عياناً ووجداناً أنَّ المرأة واقعٌ عليها سنَّة الابتلاء والامتحان. وهذه السنَّة سارية في العمودين وفي كافة درجاتهم الراتبوية التقديسية وغير التقديسية، فهي ضمن المقدسين من البشر، أنبياء ونساء مقدسات، وغير المقدسين في عمود البشرية من الناس العاديين أفراداً وأماً.

فما جرى على الأنبياء والأولياء كآدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليه السلام ومحمد صلَّى الله عليه وآله، وعلى أمير المؤمنين والحسن والحسين عليهما السلام، قد جرى على المقدسات كالسيدات خديجة زوجة النبي محمد صلَّى الله عليه وآله والسيدة آسيا زوجة فرعون، والسيدة مريم العذراء، والسيدة فاطمة بنت النبي محمد صلَّى الله عليه وآله، وابنتها السيدة زينب عليها السلام. فالابتلاء الذي واجهته السيدة مريم إنموذج للابتلاء الصعب. وكذلك حينما واجهت آسيا زوجة فرعون الطغيان والظلم ودافعت عن حرية العقيدة بكلِّ بسالة.



## مقاربة معرفية في منهجة دراسة المرأة

والسيّدة الزهراء فاطمة بنت محمد عليها السلام، والتي لا تزال مأساتها حاضرةً في الأذهان، جابهت وصارعت الجبروت والطغيان والدكتاتورية والدوغمائية بجسدها الناحل الضعيف وثقافتها الإلهية الرصينة، وذهبت شهيدةً خالدةً وأعطت كلّ شيء لعقيدها.

إنّ الآيات القرآنية التي تخاطب البشرية بأنّ الباري عزّ وجلّ ينزل البلاء والامتحان عليهم لأسبابٍ عديدةٍ، أمثال: الابتلاء بالخوف والجوع ونقصٍ في الأموال والأنفس والثمرات.

وبعبارةٍ أخرى: الإنسداد في الجانب الأمني، والاقتصادي، والاجتماعي، والنّفسي، فيدخل القلق النّفس الإنسانيّة من كافّة جوانبها، فهذه الأمور لا تختصّ بالرجال، والصبر عليها من أجل الارتقاء في مراتب الكمال الوجودي ليس خاصاً بالرجال، بل هو للمجتمع عامّةً من نساءٍ ورجالٍ، بل إنّ التجربة والوجدان أثبتا أنّ النساء أكثر معاناةً من الرجال في هذه الأمور، والجانب الأكبر من مواجهة الانسداد الحياتي يقع عليهن.

### التسخير وانعكاساته بين الرجل والمرأة

هنالك سنّةٌ كونيةٌ إلهيةٌ لها أبعادها الميتافيزيقية، والأخلاقية، والاجتماعية، وهي سنّة التسخير. وهذه السنّة لا تقتصر على الرجل.

وبعبارةٍ أخرى: إنّ الله سخّر الكون كلّهُ للإنسان باعتبار قيامه بأمر خلافة الخالق عزّ وجلّ، وواضحٌ أنّ هذا التسخير يستفيد منه الرجل والمرأة على حدٍّ سواءٍ. فإذا تمّ البرهان على أنّ الكون بما فيه من الكينونات الطبيعية من الجمادات والحيوانات والنباتات والكينونات الملكوّية من الجنّ والملائكة،



قد تمّ تسخيرها لكيونة الإنسان حدّاً يكون له الولاية التكوينية عليها، تمهيداً تاماً للدور الاستخلافي، والخاتمي، والانتظاري، والاتباعي الحضاري المعنوي والمادي، الذي ستمثله كينونة الكائن البشري من خلال سيرورة الابتلاء، والامتحان، والاختبار، عبر صيرورتها الذاتية الجوانبية والبرانية في كافة مظهرات وتمثّلات وتشعيبات وتفرّيعات الحياة المعيشوية في مجرى العالم والكون والوجود، بغية تحقيق التكامل التام والتقرّب القريب لمطلق الكمال والجمال، إذ بمقتضى العهد، والأمانة، والابتلاء، والامتحان في سياق الاستخلاف والخاتمية والانتظارية والاتباعية التي هي أصعب وأشدّ وأخطر ابتلاء وامتحان يواجه الكائن الإنساني في مسيرته وسيرورته وصيرورته في العالم والكون والوجود. وتأسيساً على ذلك، يمارس الكائن الإنساني مسؤوليته في تغيير كينونته الذاتية وكينونة الكون من خلال قدرته التسخيرية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فالتسخير علامة واضحة على امتلاك الإنسان لقدرات ولائيه هائلة على الكون، وإمكانات مستطيلة في تنوع الانتاج وتجدد الابداع، وهي أساس النهوض الحضاري الاستخلافي والخاتمي والانتظاري والاتباعي الإلهي لكيونة الفرد والمجتمع البشري<sup>(١٧)</sup>.

### نظرية الاستخدام

يقول العلامة الطباطبائي: (كيف يكون الإنسان اجتماعياً؟ لاشك أن الإنسان كان ولا يزال يعيش بصورة جماعية، ويشكّل مع الآخرين مجتمعاً مرتبطاً ببعضه ببعض، ويقضي حوائجه بالتعاون مع أخيه الإنسان، ولكن هل هذا التعاون والترابط الاجتماعي هو مقتضى طبيعته الأولية وسجيته الساذجة





## مقاربة معرفية في منهجة دراسة المرأة

التي تدفعه إلى ألا يعيش وحده بل يتعاون مع بني نوعه؟  
قد نرى أن للإنسان حاجاتٍ حسب طبيعته البشرية، وله عواطف  
ومدارك خاصةً تدفعه إلى أن ينجز ما يحتاج إليه بالأجهزة التي جهز بها، وفي  
هذه الحاجة لا يشعر بما يحتاج إليه الآخرون أيضاً.  
يستخدم الإنسان كلَّ شيءٍ للوصول إلى مآربه وما يحتاج إليه، فيستعين  
بكلِّ بسيطٍ ومركبٍ لقضاء ما لا بد منه.

ويستفيد من النباتات والأشجار الصغيرة والكبيرة، ويسيطر على  
الحيوانات وما تدرّه من الخيرات، كلُّ ذلك ليرفع بها ما يشعر به من النواقص  
الحياتية ويسدّ بها ما يتجدّد من الخلل في عيشه.  
الإنسان الذي هذا دأبه ويستخدم كلَّ ما يجده لمصلحه هل يستفيد من  
نتائج وجوده؟

هذا الإنسان الذي يحترم أخاه الإنسان في الظاهر هل يخلص التعاون معه  
ويصرف نظره عن مصالحه الشخصية للمصالح الإنسانية العامة؟  
لا، ليس هكذا، بل الإنسان يحسّ بما تطلبه الحياة منه من الحاجات  
المعاشية الكثيرة، ويعلم أنّه وحده لا يتمكن من انجازها، بل يعلم أنّه بحاجةٍ  
إلى من يساعده في قضاء حوائجه من أبناء نوعه، ولكن من جهةٍ أخرى  
يلاحظ أنّ الأماني التي تدور في خلدته تراود أذهان الآخرين أيضاً، فيسعون  
في تحقيق مصالحهم كما يسعى هو في تحقيق مصالحه.

وهنا وعندما يحسّ بهذه الحقيقة يرضخ للتعاون الاجتماعي فيتنازل عن  
بعض منافع جهده لرفع ما يحتاج إليه بنو نوعه، كما أنّه يستفيد من جهةٍ أخرى  
من جهد غيره لمصلحه الخاصّة، وفي الحقيقة يدخل في سوق الأخذ والعطاء



الاجتماعي القائم في كلِّ الأعصار والأدوار ليأخذ منه ما يحتاج إليه في مسيرته الحياتية.

إنَّ ما ينتج من الجهد الاجتماعي والعمل المشترك كأنَّه يختلط ببعضه ببعضٍ، فيأخذ كلُّ واحدٍ من أفراد المجتمع حسب وزنه الاجتماعي، أي: بمقدار قيمة العمل الذي يقوم به حصَّةً من تلك النتيجة يصرفها فيما يحتاج إليه من الحاجيات المعاشية.

يتَّضح ممَّا سبق أنَّ الإنسان بمقتضى طبيعته في طلب مصالحه الشخصية، يستخدم الآخرين لاستثمارهم فيما يعود إليه بالنفع، ولا يرضخ للتعاون الاجتماعي إلا إذا اضطر إليه اضطراراً.

إنَّ هذه حقيقةٌ تتجلَّى بوضوح في دراسة حياة الأطفال، فإنَّ الطفل يريد الحصول على ما يشتهيهِ جزافاً ومن دون قبول أيِّ توجيهٍ، ويؤكِّد طلبه بالبكاء والإلحاح لو لم يوفق للحصول عليه، وكلِّما تقدَّم في سنيِّ حياته يقترب إلى الحياة الاجتماعية ويتعرَّف على ما يفرضه عليه الخضمُّ الاجتماعي، فيتعد تدريجاً عن القول جزافاً والطلب غير الوجهي، وهكذا تتبدَّل به الأحوال حتَّى ينسى إلى حدِّ ما مطالبه الجزافية.

شاهدٌ آخر: إنَّنا نرى أنَّ إنساناً ما لو أوتي قدرةً فوق قدرة المجتمع المحيط به لم يلتزم بما يتطلَّبه منه من التعاون الاجتماعي، بل يحاول بكلِّ إمكاناته استخدام الناس ليستثمر جهودهم بدون أيِّ تعويضٍ.

ويشير تعالى إلى التعاون الاجتماعي المذكور بقوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا﴾ (الزخرف: ٣٢) فالآية الكريمة تشير إلى حقيقة التعاون الاجتماعي،

## مقاربة معرفية في منهجة دراسة المرأة

وأنَّ كلَّ واحدٍ من أفراد البشر يفوق غيره في جانب من الجهد المشترك، فكلُّ فردٍ من المجتمع له قابليَّةٌ خاصَّةٌ يستثمر الآخريين بواسطتها، فهم وحدةٌ اجتماعيَّةٌ متشابكةٌ كالسدى واللحمة بالنسبة إلى الثوب، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم: ٣٤)، ويقول أيضاً: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢)، والآيتان تشيران إلى الغريزة الطبيعيَّة المودعة في الإنسان الذي يستخدم بواسطتها أخاه الإنسان ويظلمه ويتزَّ منه ثمرات جهده وأتعا به<sup>(١٨)</sup>.

وترتكز هذه النظريَّة على النقاط التالية:

١. أنَّ الإنسان وبمقتضى طبيعته له مطالب ومصالح يدركها ويسعى لتحقيقها.

٢. أنَّه وبمقتضى طبعه - أيضاً - يستخدم كلَّ شيءٍ لأجل تحقيق مصالحه، ومنها أبناء نوعه.

٣. أنَّه لما يقدم على استخدام غيره يدرك أنَّ الآخريين من أبناء نوعه - أيضاً - لهم تلك المطالب ويسعون إلى تحقيقها بأيِّ طريقٍ، ولو باستخدام غيرهم.

٤. أنَّه بعد إدراكه لذلك ولأجل تحقيق مصالحه يضطر إلى المصالحة مع الآخريين على التمدُّن والاجتماع والعدالة الاجتماعيَّة فيقدم على خدمة الآخريين بقدر ما يستخدمهم<sup>(١٩)</sup>.

وبذلك لو عرضنا الآن هذه النظريَّة على الوجدان والعقل فماذا سيحكمان؟ هل يحكمان بأنَّ هذه النظريَّة خاصَّةٌ بالرجال أم هي تعم الجنسين؟ وحتماً يأتيك الجواب المنصف بأنَّ لا فرق بين الطرفين في ذلك. فالرجل يستخدم المرأة، والمرأة تستخدم الرجل ضمن سياقٍ سوسيو اجتماعيٍّ،



وسوسيو تاريخي، وسوسيو اقتصادي، وسوسيو سياسي، وسوسيو انطولوجي، وسوسيو ديني تكاملي استخلافي توحيدي فقهي ولائي قياسي يشكل منظومة حياتية نعموية من الباري.

### مسألة المساواة معرفياً

وهي المسألة التي أثارت النقاش والصراع الثقافي بين أهل الفكر، وكُفّر البعض نتيجة لموقفه، ولا يخفى الافراط والتفريط إزاءها، ولا تزال القضية محلّ جدلٍ ومجادلةٍ وأخذٍ وردّ.

إنّ القرآن وهو كلام الله اذا لم يفرق بين عمل ذكرٍ أو أنثى، وبين وعظٍ وإرشادٍ وتبشيرٍ وإنذارٍ بينهما، وكلّمنا نسمع عن أقوال الاختلاف والتمييز أو التباين والتضاد، أو التقابل والتفارق، وخاصّةً ما يُنسب حقيقةً أو اعتباراً إلى الإمام عليّ عليه السلام من حيث نقصان العقل والدين والحظ<sup>(٢٠)</sup>. ولا علاقة لذلك البتة في أصل التكوين والفطرة والكينونة والواجبات والمسؤوليات والتكاليف الشرعية، لذا لا بدّ من أن تحمل حقيقة التمايز والتغاير الفيزيولوجي والبيولوجي على النظام الأكمل والنسق الأدقّ التكاملي والتعاوني والتعارفي والتوازني والتعادي في سياق التخصيص الوظيفي والتقسيم الطبيعي وتوزيع المسؤوليات لكلّ منهما حسب تموضعهما في النظام والنسق التزاوجي والأسري، وإلاّ كيف يمكن أن يفرّق القرآن الناطق أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بينهما؟ في حين أنّ القرآن الصامت يساوي بينهما في الأصل والأصالة من جهة، ويوازن ويعادل بينهما من جهة ثانية، بحيث كلّ التباينات والاختلافات والتغايرات المنصوص عليها سواءً في القرآن أو الحديث أو



## مقاربة معرفية في منهجة دراسة المرأة

كلمات الإمام عليّ عليه السلام تصبّ في معادلة التكامل والتوازن والتعادل والتماثل والتشاكل والتضارع والتناظر دون التطابق والتساوق<sup>(٢١)</sup>.

وجدلّية مثل جدليّة الدور السياسي للمرأة لا يكمن في المسألة السياسيّة، بل إنّ الأمر مرتبطٌ بالنظرة الوجوديّة لدور المرأة في الحياة، إذ هناك عدّة موضوعاتٍ مخترنة في الوعي الجمعي أو الاجتماعي تشكّل بإجمالها وتفصيلها النظرة العامّة للمرأة.

وحسبى الفعل أو النشاط المعاكس ترى أنّه ليس إلّا حالة ردّ فعلٍ لما ذكرنا فكأنّه يريد أن يثبت وجوده وإن استدعى التنظير إلى الخروج عن أصل الحلقة إذ شدّد الفكر النسوي الليبرالي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على عقلانيّة النساء، وضرورة تعليمهن تعليماً مساوياً لتعليم الرجال، متحدّياً التراث الفلسفي التقليدي الذي تغاضى عن استعدادات النساء العقليّة والتفت إلى وظيفتهن البيولوجيّة وقدرتهن على الانجاب. وقد جاء التشديد على قدرات المرأة العقليّة ليؤكدّ بأنهنّ مؤهّلات لما كنّ يطالبن به من حقوق كحقّ التعليم، والتملّك، والعمل، والتصويت. لكن بعد أن حازت النساء في القرن العشرين على هذه الحقوق وخضن مجالات العمل المختلفة، واجهتهنّ مشكلةٌ جديدةٌ لم تلتفت إليها النسويّة الليبراليّة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وهي مسؤوليتهنّ المزدوجة نتيجة عملهنّ خارج المنزل وداخله، إضافةً إلى الحمل والولادة وما يتبع ذلك من أعمالٍ تتعلّق بتنشئة الأطفال ورعايتهم، وهي مسؤوليّاتٌ تضطلع بها المرأة وحدها<sup>(٢٢)</sup>.

وقد نظرّ العرفاء لقضيّة مساواة الرجل والمرأة باستدلالٍ غايةٍ في الروعة إنطلاقاً من قول ابن عربي: أعلم أنّ المرأة باعتبار الحقيقة عين الرجل،



وباعتبار التعيين يتميّز كلٌّ منهما عن الآخر<sup>(٣٣)</sup>.

نلاحظ أنّه يشير إلى عدم التمايز بين الرجل والمرأة؛ لأنّ الحقيقة الإنسانيّة واحدة، والتمايز يكمن في التعيين والتشخيص، وبالتالي هما متساويان في الرقي العرفاني والوصول إلى المقامات العلوية في عالم معرفة الله والعلاقة بالله. ويقول ابن عربي: إنّ هذه المقامات ليست مخصوصة بالرجال فقد تكون للنساء أيضاً، ولكن لما كانت الغلبة للرجال تذكر باسم الرجال<sup>(٣٤)</sup>.

ولو سلّمنا بهذه الغلبة التي يقرّها ابن عربي، فلنا أن نتساءل: هل هذه الغلبة في نيل المقامات العرفانيّة ذاتيّة أم عرضيّة، أي: هل إنّ في أصل خلقة المرأة أنّها ليس من شأنها نيل المقامات العرفانيّة؟

والجواب حتماً بالنفي، لعدم وجود دليل على ذلك، بل إنّ هناك عوامل وظروفاً خارجيّة هي التي أدّت إلى تقدّم الرجال على النساء، وأخصّ بالذكر عوامل التربية والبيئة المحيطة، فالتربية في الأسرة قائمة على فكرة الترتيب المتأخّر للبنات ما جعلها لا تفقه غير عمل البيت وخدمة الآخرين في العائلة، فليس شأنها العبادة، بل خدمة العابدين! وليس شأنها التفكير بل خدمة المفكرين! وليس شأنها الحكم بل خدمة الحاكمين! ولم يعطوا مجالاً للمرأة بل حبسوها في البيت ومنعوها عن العلم والتعليم ثمّ قالوا: حيوان لا يفهم!

يرى محيي الدين أنّ السير في محبوبة المرأة يكمن في أنّ الله جلّ شأنه منزّه عن المشاهدة من غير تجلّ وظهور، فكلّما كان المظهر جامعاً لأسماء وصفات أكثر من غيره كانت مظهريته لله أكمل، فالمرأة أكمل من الرجل في مظهرية الله؛ لأنّ الرجل مظهر القبول والانفعال فقط، والمرأة بالإضافة إلى كونها مظهراً للقبول والانفعال الإلهي، فهي - أيضاً - مظهر للفعل والتأثير الإلهي،

## مقاربة معرفية في منهجة دراسة المرأة

لأنّها تتصرّف بالرجل وتجذبه نحوها، وهذا التصرف والتأثير نموذج لفاعليّة الله. لهذا السبب فإنّ المرأة أكمل من الرجل، فلو شاء الرجل مشاهدة الله في مظهريّته فشهوده غير تامّ، ولكن لو أراد مشاهدة الله في مظهر المرأة فشهوده يبلغ التمام والكمال. ولهذا صارت المرأة محبوبه الرسول الكريم ﷺ وقد نقل عنه أنّه قال: «حبّ إليّ من دنياكم الطيب والنساء وقرّة عيني في الصلاة»<sup>(٢٥)</sup>.

فمن شروط نيل الخلافة عند ابن عربي، أي: خلافة الله في العالم الاتّسام بالكمال والإنسانيّة والصورة الإلهيّة، لذلك ليس من حقّ كلّ إنسان أن يكون خليفة، ثمّ إنّ هذا المقام غير مقتصر على الرجال؛ لأنّ المعيار هو الإنسانيّة، بل أقصى درجات الإنسانيّة، وهذا ممّا يمكن للنساء كما الرجال، فليس المعيار هو الذكوريّة. فالذكوريّة والأنوثيّة ليستا من الحقائق الإنسانيّة وإنّما من أعراضها، ولذلك قال الرسول محمد ﷺ: «كمل من الرجال كثير ونكملت من النساء مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة وفاطمة»<sup>(٢٦)</sup>.

وقد عكس رأيه ذاته في الفصوص عندما قال: اعلم - أيّدك الله - أنّ الإنسانيّة لما كانت حقيقةً جامعةً للرجل والمرأة، لم يكن للرجال على النساء درجةً من حيث الإنسانيّة<sup>(٢٧)</sup>.

إنّ ابن عربي ورغم تسميته للكمال الذي يشترك فيه الرجال والنساء معاً بالنبوة، إلّا أنّه وبعد نقله في الباب ٣٢٤ من الفتوحات لحديث نبويّ يقول: «النساء شقائق الرجال». قال: إنّ النساء تشارك في جميع المراتب بما فيها مرتبة القطبية، وبإمكانهن - لو أراد الله طبعاً - الوصول إلى ما يصل إليه الرجال.

ولأجل دفع الشبهة لا بدّ من التذكير بأنّ الحديث النبويّ القائل: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»، جاء فيمن ولّاه الناس، لا في تولية الله. ونقل



ابن عربي أيضاً على صعيد مكانة المرأة حديث الرسول القائل: «حَبَّ إِلَيَّ مِنْ دِيَاكُم ثَلَاثُ: النِّسَاءُ، وَالطَّيِّبُ، وَجَعَلْتَ قَرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» وأكد أنَّ صحبة النساء وذكرهن يقرب الإنسان إلى الله؛ لأنَّ الله يجعل لنبِيِّه محبوباً ليقربه إليه لا ليعده عنه. ولما كانت هناك ثلاثة أسرارٍ مكتتمةٍ في معرفة المنزل، يعدُّ العلم بقدر النساء وقيمتهن ومنزلتهن في الوجود وكذلك تحبيب الله لهذه الشريحة إلى نبيِّه، من أسرار الاختصاص، ولهذا آجر موسى نفسه عشر سنواتٍ في مقابل نكاح المرأة، لأنَّه كان عارفاً بمنزلتها.

وصفوة القول: أنَّ ابن عربي سعى ما استطاع لإثبات فضيلة المرأة ومقامها المعنوي أو مساواتها للرجل على أقلِّ تقديرٍ، مستعيناً بكلِّ شيءٍ بما فيها الأحكام الفقهيَّة، بل وحتى القواعد الصرفيَّة والوضع والشكل اللغوي للكلمات. وقد أوقع نفسه في التكلف في بعض الأحيان. وقال في نهاية المطاف: (فمن عرف قدر النساء وسرهنَّ لم يزهدهنَّ في حبهنَّ، بل من كمال العارف حبهنَّ فإنه ميراثُ نبويٍّ وحبُّ إلهيٍّ) (٢٨).

### المرأة والسؤال الحضاري المعرفي

إنَّ السؤال الحضاري الكبير اليوم يلحُّ على الحاضر الإسلامي والنظريَّة المعرفيَّة الإسلاميَّة، بضرورة الإجابة عن أسئلةٍ تخامر الآخر و- أيضاً- تعتمل في صدر الإنسان داخل الإطار، فما هي بالضبط مكانة المرأة في الإسلام كشريعةٍ ونظامٍ وجودٍ متكاملٍ؟ وهل تكفي الأجوبة التسكيتيَّة أمام الآخر أم لا بدَّ من تحديدٍ نظريٍّ متناسقٍ مع آلياتٍ عمليَّةٍ تتحوَّل إلى واقعٍ معاشٍ سلوكيٍّ يوميٍّ في كلِّ الاتجاهات؟

وهل تستطيع الفلسفة الإسلاميَّة التخلُّص من عبء الفلسفة اليونانيَّة



## مقاربة معرفية في منهجة دراسة المرأة

والتراث الروماني اللذين حطًا من قيمة المرأة؟

إنَّ المذهب النسوي الحديث لديه تساؤلاتٌ ابستمولوجيةٌ غايةٌ في إثارة الجدل المعرفي حول مكانة المرأة، فهي اليوم قد تجاوزت تساؤلات عصر الحداثة إلى عصر ما بعد الحداثة.

إنَّ أسس الفلسفة التقليدية وفلسفة عصر التنوير أصبحت متَّهمة بالإساءة إلى المرأة، وذلك كون الأبستمولوجيا التقليدية قامت على مركزية العقل، وأنَّ النساء غير مؤهلاتٍ عقلياً لممارسة التفكير المجرّد والموضوعي، وأنَّ المعرفة التي ينتجها الذكور انعكاسٌ لممارسات العلم المنتج ذكورياً، وأنَّ الانتاج المعرفي لا ينفك عن الفئويّة الاجتماعيّة، وينتج عن كلّ ذلك ابستمولوجيا أحادية الجانب<sup>(٢٩)</sup>.

إنَّ مسألة النظام الطبيعي أو ما يطلقون عليه نظام الخلقة هو الحاكم في مملكة تقسيم الحياة بين الرجل والمرأة، فالأسرة لها نظامها الطبيعي المعروف تاريخياً، وهذه الفكرة هي السائدة زمانياً ومكانياً وحتى على الفكر الديني في الإسلام. ولقد أثرت على النواحي السياسيّة، والاقتصاديّة، والاجتماعيّة، نظرياً وعملياً، وبالتالي نرى أنَّ جلال الدين الدواني والخواجة الطوسي قد ذهبوا إلى أنَّ حقوق الرجل والمرأة وواجباتها لا بدَّ وأن تتلائم مع هذا النظام الطبيعي، ولا بدَّ من مطابقة الأنظمة السياسيّة والاقتصاديّة وغيرها مع هذا النظام الأسري. ولا يخفى أنَّ هذا النظام قائمٌ على أساس بيولوجيٍّ جسديٍّ. ولكن هذا لا يعني أنَّه لم تنشأ محاولاتٌ خلاصيةٌ همّها تغيير هذا النظام إلى القراءة التاريخيّة لنظام الأسرة قائمٌ على التناسب الجدلي بين الزمان والمكان والحقوق ونظام الحقوق والواجبات، وفي ذلك ينقل عن السيّد الشهيد محمّد



## ◆ عدنان الحسيني

باقر الصدر رحمته الله أنّ الزمن الذي كان للمرأة فيه حقوق أقلّ من الرجل كانت المسؤوليات الحياتية الكبرى وضمن ذلك مسؤولية الأسرة تقع على عاتق الرجل. وقد كان البناء الاجتماعي يقتضي ذلك، وقدّمت للرجل مجموعة من الخصوصيات بنحو تتلاءم مع هذا البناء الاجتماعي، وقد حرمت منها النساء، فإذا تقرّر اليوم أن تكون المرأة شريكة حياة بالنسبة إلى الرجل، لا أمينة على حياته الخاصة فلا بدّ أن تتغير النظرة إلى الأحكام الفقهية وطريقة الاستنباط بنحو يتناسب مع هذا التغيير، وبالتالي لابدّ من تقسيم المسؤوليات بين الطرفين ولا بدّ أن يكون لها من الحقوق في الأسرة ما يتناسب ودورها الحديث في التنمية الإنسانية<sup>(٣٠)</sup>.



## المبحث الثاني: التنظير الفلسفي

نحاول في البحث الفلسفي بيان آراء الفلاسفة ومجمل التنظير الفلسفي في القضية موضوع البحث، والمفروض أن الفلسفة تنظر لحقيقة الواقع وتعالجه بعيداً عن العاطفة والميول الخيالية.

والنظر إلى الانتاج الأدبي الذي ينم عن تأثر فلسفي بمدرسة معينة يلقي بضوءه على ما نريد توضيحه مقدمة للبحث، فالأدباء انقسموا تجاه المرأة قسمين:

قسمٌ انتَهك إنسانيتها بطريقة معينة مثل (توفيق الحكيم) الذي اعتبرها سجناً للرجل، فقد كان مسجوناً في بطن الأنثى وعندما كبر سُجن بطريقة أخرى، فالمرأة خلقت من أجل الحب واستئناس الرجل، وإنما خلقت من ضلعه الأعوج، وهي كائنٌ مخادعٌ فتاكٌ جميلٌ حمقٌ.

لقد كان يحمل اتجاه المرأة شعوراً متضاداً بين الحب والخشية، وهذا يرجع لأسبابٍ خاصةٍ إلا أنه عمم تجربته مع أمه المتسلطة على الجميع<sup>(٣١)</sup>.

ولا يختلف الأمر في رواية (مدام بوفاري) الشهيرة حيث يطرح (غوستاف فلوبير) في كتابه الصادر عام ١٨٥٦ تصوراً عن امرأة ترعرعت في ديرٍ للراهبات حيث نظام الصرامة والمحافظة، ثم تزوجت من طبيبٍ خيب أحلامها، فاتجهت تنسج خيالاً عن فتى الأحلام من خلال الروايات التي ألهمت فيها مشاعر غريبة من الأنوثة حتى رمت بنفسها في أحضان رجلين



كبدائل لزوجها الذي لم ترفيه ما رأته في ذينك الرجلين، وكانت النتيجة أنّ الاحساس العالي بالاثم أودى بها إلى الانتحار. وقد أثارت هذه الرواية في وقتها المجتمع إلى درجة أنّ صاحبها تلقى حكماً من المحكمة<sup>(٣٢)</sup>. إنّ موقفاً بدأ يتبلور منذ ما يسمى (عصر الأنوار) في القرن الثامن عشر، فلقد ظهر من ينادون بالمساواة الفكرية بين الرجل والمرأة أمثال: (هلفسيوس) و(كوندورسيه) و(جون ستيوارت مل)، بل إنّ الأخير صدر له كتابٌ أسماه (استعباد النساء). ثمّ ظهر (برتراند راسل) الذي اعتبر أنّ التطوّر في الأسرة من الشكل الأموي إلى الشكل الأبوي هو السبب في خضوعهن للرجال. ولقد أظهر (لامارتين) في قصيدة (البحيرة الشهيرة) شعوراً متقدماً نحو المرأة حينما استخدمها كمرآة لروحه، و(فيكتور هوجو) في (التأملات) يشبّه المرأة بالبحيرة والبلبل الذي بتغيره يحكم القلوب.

ولقد انصفت ملحمة (كلكامش) المرأة التي كانت مسؤولةً عن اخراج الرجل من التوحّش إلى التحضر والمدنية، وهذا ما يشبه إلى حدّ ما قصّة (ألف ليلة وليلة) حينما تستطيع الأنثى الضعيفة شهرزاد تحويل الملك شهريار من سلوك العنف والقتل والبربرية إلى ملكٍ مثقّفٍ متحضرٍ محبٍّ<sup>(٣٣)</sup>.

### التراث الفلسفي المسيحي

#### القديس بولس

إنّ الفكرة الأساسية التي وردت في العهد القديم عن المرأة - من وجهة نظري - هي المسؤولية عن تردّي وضع المرأة، تلك النظرة القائمة على نظرية أنّ حواء خلقت من ضلع آدم وأنّ أصل البشرية ليس إلا من آدم، أي: الذكر. وهذا سيوقع من يخالف هذه الفكرة في معضلة الاختيار الحتمي بين الدين

## مقاربة معرفية في منهجة دراسة المرأة

واللادين، لأن الدين وفقاً لهذا السياق هو المسؤول عن التخلف الذي أصاب العقول في النظر إلى المرأة، وليس هناك من طريق للخلاص من هيمنة هذه الفكرة إلا بنزع رداء الدين.

إن هذا ما تلاحظه عند القديس بولس، إذ إن فكرة القديس بولس عن المرأة تتضح بنقل كلامه إلى أهل (كورنثوس) عندما قال: إن الرجل لا ينبغي أن يغطي رأسه لكونه صورة الله ومجده، أما المرأة فهي مجد الرجل.. لهذا ينبغي أن يكون لها سلطان على رأسها<sup>(٣٤)</sup>. فبولس يراها متدنية ولكن بصبغة دينية<sup>(٣٥)</sup>.

وأوغوستينيوس (٣٥٤-٤٣٠)، ليس ببعيد عن الفكرة المزبورة، فتجده يقول في الاعترافات:

نرى الإنسان في آخر المطاف قد خلق على صورتك وشبيهاً لك، ويحكم جميع الحيوانات التي لا عقل لها. ولهذا السبب خلق على صورتك وشبيهاً لك، أي: لأن لديه قوى العقل والفهم. وكما أن هنا قوتين في نفس الإنسان، احدهما مهيمنة لأنها تفكر، والأخرى مطيعة لأنها مشمولة بهذه الهداية، كذلك المرأة خلقت للرجل من حيث الجسم. فالمرأة من حيث الذهن لديها طبيعة مماثلة للرجل، ومن حيث الجنس والجانب الجسماني فإنها تابعة للرجل. وبنفس الطريق يجب أن تخضع فيها حركاتنا الطبيعية للقوة الذهنية الاستدلالية، من أجل أن تقع تلك الأعمال التي تتم بواسطتها تلك الحركات، تحت إلهام أصول السلوك الحميد.

وأما الزواج فهو شرٌّ لا بد منه لأولئك الذين من الممكن أن يخرجوا من طريق التقوى بفعل الأهواء النفسانية.



إنَّ الزواج يجعل الرجل دنيويًّا والعزوبة تجعله إلهيًّا.  
وليس توما الاكوييني (١٢٢٥ - ١٢٧٤) ببعيد - أيضاً - عن هذا السياق  
في التنظير، ففي كتابه (كليات اللاهوت) يعتقد أنَّ المرأة خلقت من الرجل،  
ويعتمد أيضاً على رواية العهد القديم، فمثلاً أنَّ الله مبدأ كلِّ العالم كذلك  
الرجل الأوَّل مبدأ كلِّ النوع البشري<sup>(٣٦)</sup>.  
وباختصارٍ: لا يختلف فكر الاكوييني عن فكر بولس.

### تقييم ونقد عام

من وجهة نظري أنَّ الجنس والكمون الشهواني هو الذي يحرك أفكار  
بعض الفلاسفة ورجال الدين نحو المرأة ووضعها في النظام الإنساني العام،  
ويشترك في ذلك رجال الدين من كل الأديان دون استثناء، ووفقاً لذلك  
نستطيع معرفة حقيقة بعض النصوص التي أطلقها بعضهم، فتجد أنَّ بولس  
يقول: (لتصمت نساؤكم في الكنائس. إلاَّ أنَّه ليس مأذوناً لهنَّ أن يتكلمن، بل  
يخضعن كما يقول الناموس أيضاً. لكن إن كنَّ يردن أن يتعلَّمن شيئاً فليسلأن  
رجالهنَّ في البيت...) (٣٧).

وهذا ما يذهب إليه الغزالي في أنَّ المكان المناسب لتعليم المرأة الدين هو  
البيت. وهو ما يذهب إليه اليهود من عورة صوت المرأة.  
ومما يساعد على ذلك تلك الفكرة التي تقول: إنَّ المرأة أصل الخطيئة،  
وهي الفكرة التي سيطرت ولم تنزل تسيطر على الفكر الديني المسيحي  
واليهودي، بل وحتى العقلية العامية الإسلامية تأثرت بها. ومفادها: أنَّ المرأة  
أصل الغواية، وهي المسؤولة عن معصية آدم وخروجه من الجنة.

إنَّ ما ذهب إليه هذا الفكر الانعزالي على المرأة يخالف ما جاء به يسوع



## مقاربة معرفية في منهجة دراسة المرأة

الذي كان يتحدث مع النساء والرجال عامّة، فلم يكن مستمعوه من الرجال فقط، وكانت الجموع تتبّعه رجالاً ونساءً، ويعالج الجميع دون استثناء.

أمّا في الفكر الإسلامي تجد أنّ القرآن الكريم يقول: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ \* فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٨﴾.

وهي صريحة بأنّ الخروج من الجنة كان بسبب رضوخ كلٍّ من آدم وحواء لتسويات الشيطان، وأنّ الشيطان هو المسؤول عن الغواية. وكلاهما (آدم وحواء) مسؤولان عن الخروج من الجنة، بل وأكثر من ذلك، فإنّ القرآن جعل مسؤوليّة التوبة على عاتق آدم، لذلك تجد القرآن يقول: ﴿فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٣٩﴾.

وتجد في التراث الإسلامي السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام قد خرجت تدافع عن تراث النبوة والدين الذي أصابه الانحراف، وواجهت الظالمين المستبدين ودافعت عن زوجها وإمامها، ووقفت خطيبةً أمام الناس والحكام، وخطبت فيهم خطبةً حماسيةً لم يأت أحدٌ بمثّلها إلى يومنا هذا.

ثمّ أتت بعد ذلك ابنتها السيّدة زينب عليها السلام لتتحمل مسؤوليّة الدين والمجتمع، فشاركت في الحرب مع أخيها وقائدها الإمام الحسين عليه السلام، فسجّلت مواقف نادرةً في تاريخ البشريّة في يوم عاشوراء وبعد عاشوراء أمام الديكتاتور (يزيد).

ويّضح من ذلك أنّ التراث الإسلامي لا يهين المرأة ولا يحتقرها ولا يركنها أثنائاً مهملاً في البيت، بل أوصلها إلى درجة أن تتحمّل مسؤوليّة دين



بأكمله، وهذا يظهر - أيضاً - في نظر الإسلام إلى التراث السابق عليه مثل نظره إلى آسيا امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وبلقيس ملكة سبأ، فإن آسيا تحمّلت عبئ التوحيد ومقارعة زوجها الحاكم وتحملت في ذلك أنواع العذابات مما لا يمكن لرجال أشدّاء تحمّله لذلك قال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٤٠)</sup>.

وأما الثانية فهي السيّدة مريم عليها السلام التي وقعت في محنة اجتماعية ودينية وتحملت ثقل نبوة ودين من خلال انجابه غير المسبوق، ووقفت أمام المجتمع اليهودي لا تمتلك إلا إيمانها وابنها النبي، فكانت هداية البشرية بأجمعها من خلال امرأة ضعيفة في بدنها قوية في دينها، وأيضاً هذا كله في ظل سيادة الثقافة الرومانية التي لا تحترم المرأة ولا تحتفظ لها بأي مكانة.

وأما بلقيس فهذه مكانتها في القرآن الكريم وقد مدحها ولم ينكر عليها أنها حاكمة وملكة وتقود الناس، لذا جاء في القرآن: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ \* إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \* أَلَا تَعْلَمُونَ أَنِّي وَأَنْتُ نِي مُسْلِمِينَ \* قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون \* قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ \* قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ \* وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾<sup>(٤١)</sup>.

نعم، هناك قضية الأفضلية، أي: إن الأفضل والأحسن والأجمل للمرأة أن تتجنّب الاختلاط، والفلسفة القرآنية هنا جميلة جداً عندما يذكر ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ



## مقاربة معرفية في منهجة دراسة المرأة

مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٤٢﴾ .

فالنص القرآني يذكر أن الأفضل للنساء بشكل عام الابتعاد عن مخالطة الرجال، لأن هؤلاء الرجال فيهم من هو منحرف النفس والنظر، ووصفه بأن في قلبه مرضاً، لكن ذلك بنحو الإهمال الذي هو في قوة الجزئية، أي: إن بعض الرجال لا كلهم، في قلوبهم مرض الانحراف والشبق الجنسي، والذين ينظرون للمرأة على أنها جسدٌ يشعرهم باللذة الحسية الجنسية. وبذلك برأ القرآن الكريم ساحة النساء من الانحراف الأخلاقي أو النفسي، وألقى بقضية اجتناب الاختلاط على عاتق الرجال.

إذن، فينبغي قراءة التراث الإسلامي بعيداً عن عقد بعض رجال الدين وغير رجال الدين من المحكومين بعقد الجنس والتربية الذكورية الخاطئة.

وإذا رجعنا إلى عامل الجنس في تأثيره على فكر بعض رجال الدين سوف نرى القديس أوغسطين، الذي كان قبل مسيحيته منغمساً في الملذات الحسية الجسدية وكان معاشراً لامرأة معاشرة الأزواج لأكثر من عشر سنين، وقد أنجب طفلاً منها من الزنا<sup>(٤٣)</sup>، لذلك كانت ردة فعله قوية تجاه المرأة وحمل صنف النساء كل خطيئاته وآثامه.

وحتى بعض رجال الدين اليوم لا يأخذون بالنصوص الدينية من القرآن والسنة في موقفهم من المرأة، بل يستوحون من تربيتهم الخاطئة في بيوتهم موقفهم من المرأة، وكذلك من الإيحاءات الجنسية التي تعتمل في نفوسهم ويعتبرون المرأة مسؤولة عن ذنوبهم الجنسية. وهذا حال الإنسان بشكل عام فهو يحب دائماً أن يلقي بتبعة أخطائه على الآخرين. فالشيخ مطهري تجده يصرخ قائلاً: المعيار الأساس في مجتمعنا هو الشعار، ولا شغل لنا بالعمل



والروح ... مجتمعنا علويّ شعاراً وضدّ عليّ مضموناً ... والويل الويل لمن يريد أن يكون علويّاً في صراحته وصلابته ويقدم الإسلام على المشايخ ... أردت أن يمسكوا بأيديهم الجافة مرآة لينظروا ماذا حلّ بالإسلام والمسلمين جرّاء أفكارهم المغلوطة ... لا ينسجم مع الإسلام ولا الإنسانية، ذلك تصوّر الذي يحكم على المرأة بالحبس المؤبّد، والحرمان من التعليم ومن كلّ كمالٍ تحت شعار المحافظة على العفّة، فيؤدّي ذلك الحبس إلى أن لا يكون للمرأة مشغلةً غير اطفاء شهوة الرجل وخدمته<sup>(٤٤)</sup>.

فينبغي التفكيك بين ما هو من الدين وما هو من الطارئ على الدين من الفكر الإنساني المنبعث عن الاجتهاد الذي كثيراً ما يكون متأثراً بالظروف الذاتية والموضوعية للإنسان.

يقول زكي الميلاد: وثمة هدفان لهذا التفكيك بين ما هو من الدين وما هو من الفكر الإنساني.

الهدف الأول: حتّى لا يفهم التجديد في حالة انبعائه ويفسّر بوصفه خروجاً على الدين أو تجاوزاً له، ولا حتّى احتكاكاً ومساً به، وأيضاً لقطع الطريق على الذين يعترضون على هذا النهج ويرفضونه، ويضعون العراقيل في دربه، ويتهمونهم بالخروج على الدين، أو التجرؤ عليه، وتمييع التعامل معه.

أمّا الهدف الثاني: فلكي يعطي الناس انفسهم الحقّ في فحص ونقد الأقوال والنظريات التي تحسب وتصنّف ضمن الفكر الإنساني، بوصفها اجتهاداتٍ وتصوراتٍ قابلةً للخطأ والصواب، ومعرضةً للنقص وعدم الكمال، وتتأثر بمقتضيات الزمان والمكان وشروطه، وبطبيعة المجتمع والبيئة الثقافية، الوضع الذي يجعلها تتأثر من حيث قيمتها وحيويتها مع تقادم الزمن

## مقاربة معرفية في منهجة دراسة المرأة

المتسارع في حركته، والمتغير في مساراته.

ويعبر هذا التفكيك عن طورٍ منهجيٍّ، ولا بدَّ من الوصول إليه، لكي تتحدّد وتبلور طرائق ومنهجيّات الفهم، والتعامل مع ما هو من الدين، ويكون أزليّاً ومتقادماً مع الزمن، وما هو من المعرفة الإنسانيّة ويكون نسبياً ومتغيراً. ومن دون هذا النمط من التطوّر يلتبس التجديد ويكون غامضاً ومعرّضاً لسوء الفهم والتفسير، وذلك لعدم الوضوح في طبيعة حدوده ومجاله وغايته، وهل هو تجديدٌ في الدين أم في المعرفة الدينيّة؟

وممّا لاشكّ فيه أنّ هذه الإشكاليّة تعدّ واحدةً من أعقد الإشكاليّات في المسيحيّة والفكر المسيحي، وذلك بعدما امتزجت المعرفة الدينيّة البشريّة بالدين منذ القدم، وبات من الصعب عند المسيحيين فصل هذين الأمرين والتفكيك بينهما، الوضع الذي ترتّب عليه تعدّد واختلاف التفسيرات والتأويلات بحسب تعدّد الأناجيل. أمّا علم اللاهوت الذي عرف في الفكر المسيحي، فقد جاء أساساً لكي ينظّم المعرفة الدينيّة المسيحيّة في إطار ما حصل فيها من تعدّد واختلافٍ في التفسيرات والتأويلات<sup>(٤٥)</sup>.

أمّا في التفكير الفقهي الإسلامي، فلقد اختلف الأمر عند أصحاب التجديد الفقهي، ولكن لا نريد أن نتطرّق لتفاصيل فقهيّة بقدر ما نريد أن نشير إلى أنّهم فرّقوا بين الشريعة وأقوال الفقهاء وجعلوه مدخلاً للنقد والفحص<sup>(٤٦)</sup>.



## الهوامش

- (١) الحاجي، جعفر عباس، فقه وفلسفة المنهاجية التكاملية التوحيدية ١: ٢٣.
- (٢) الحاجي، جعفر عباس، المنهاجية التكاملية ١: ٣٠.
- (٣) الحاجي، جعفر عباس، كتاب الزواج (لم يتم طبعه): ٣٦-٣٧.
- (٤) انظر: الحاجي، جعفر عباس، فقه وفلسفة المنهاجية التكاملية التوحيدية، الكتاب الاول، ٢: ٤٧٢-٤٧٢.
- (٥) ابن العربي، محي الدين، فصوص الحكم، الفص الهودي: ١١١.
- (٦) ابن العربي، محي الدين، الفتوحات المكية، ٣: ٤٤٣.
- (٧) انظر جهانكيري، محسن، محيي الدين بن العربي: ٤٤٠.
- (٨) جهانكيري، محسن، محيي الدين بن العربي: ٤٥١-٤٥٢.
- (٩) مقال نقد الخطاب الذكوري عند بيار بورديو، د. محمد بن سباع، ضمن مجموعة مقالات بعنوان (الفلسفة والنسوية)، اشراف وتحرير: د. علي عبود المحمداوي: ١٠٣.
- (١٠) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.
- (١١) سورة الروم، الآية: ٢١.
- (١٢) الراسخي، فروزان، المرأة من خلال المعرفة الشهودية، مجلة: المحجة، العدد ١٢، ٢٠٠٤.
- (١٣) املي، جوادي، المرأة في مراة الجلال والجمال، ترجمة: خليل العصامي، دار الاسراء للنشر، الطبعة الاولى، ١٤٢٨ هـ ق: ١٥٤-١٥٥.
- (١٤) الحسن، طلال، معرفة الله (تقرير دروس كمال الحيدري)، دار فراق، الطبعة الاولى، ٢٠٠٧، ايران ١: ١٥١.



(١٥) املي، مصدر سابق: ٣٢٤-٣٢٥.

(١٦) الحاجي، المنهاجية التكاملية، ٢: ٤٩٢-٤٩٢.

(١٧) المصدر السابق: ١٥٠.

(١٨) القاضي، محمد حسين بن السيد محمد التبريزي، القرآن في الإسلام: ٩٢-٩٦.

(١٩) أنظر أيضاً: القاضي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ٧٠: ٢-٧١.

(٢٠) أما بالنسبة «لكون النساء ناقصات العقول»: كما ورد في كلام أمير المؤمنين عليه السلام

فللاجابة عن هذا السؤال، يلزم بداية الإشارة إلى عدة أمور:

١. معيار تفوق الرجال والنساء كل منهم على الآخر كما صرح به القرآن الكريم هو "التقوى والفضيلة" والمخطيء والعاصي هو ناقص العقل، ولو كان رجلاً، والمتقي الفاضل كامل العقل وإن كانت امرأة أيضاً.

٢. صفة "نقص العقل" الواردة في الروايات ليست حكراً على النساء، بل إن هذا الوصف ينسب إلى الرجال أيضاً، وقد يعزى ذلك إلى نوع الإنسان بشكل عام. فيقول الامام علي عليه السلام مثلاً: «إعجاب المرء بنفسه دليل علي ضعف عقله» حيث عد الإعجاب والتركيز على الذات أو الأنانية، سبباً في نقص العقل. وفي رواية أخرى: «اتباع الهوى سبب لافتقاد العقل». وعلى هذا، فلعل ما ورد حديث في نقص عقل المرأة، هو من ضمن هذه المجموعة من الأحاديث، من أجل أن التعبير عن الحالة الإنسانية التي من المحتمل أن تأتي، وأولئك الذين يتصفون بصفة الإعجاب بالنفس، التكبر، الغطرسة، والأنانية.. سيقبل أداءهم ونشاطهم العقلي، ويصابون بضالة العقل، أما إذا أزيلت هذه الصفات من الداخل عبر التربية وتهذيب النفس، فستوضع حواجز أداء وتنوير العقل جانباً، وتعود الى الطبيعة البشرية الخصبية، وينضج العقل البشري الطبيعي ليكون خصباً مرة أخرى، ومن ناحية أخرى، فإن فهمنا لإدراك معنى ومقصود بعض الأحاديث النبوية محدود وناقص جداً. فعلى سبيل المثال، الحديث المروي عن الإمام عليه السلام في تشبيه المرأة بالضلع الأعوج، قال: "مثل المرأة مثل



الضلع الأعوج إن أقمته كسرتة". ليس الغرض من الاعوجاج معناه الظاهري، لأن الضلع لا يمكن إقامته أبداً، بل فيه إشارة إلى أهمية الظلع في الجسم، كونه حافظاً لأسراره ومولداً للدم،... والمرأة أيضاً كاتمة لأسرار الأسرة، وهي مصل الدم الذي يجري في عروق الأسرة، وسبباً في تدفق الحياة في المجتمع... وإنما يكون للضلع فاعليته وأدائه فيها لو كان له وضعه المناسب، وإلا، فإن أراد أحد إقامته انكسر، فلا يكون بعد ذلك حافظاً وكاتماً للأسرار، ولا مولداً للدم «أي يفقد فاعليته وأدائه».

الهامش هو - أيضاً- للدكتور الحاجي.

(٢١) المصدر السابق: ٣٧-٣٨.

(٢٢) العزيمي، خديجة، الاسس الفلسفية للفكر النسوي الغربي: ١٥٧، بيسان للنشر والتوزيع والاعلام، ط ١، حزيران ٢٠٠٥م، لبنان.

(٢٣) شرح فصوص الحكم، محمد دوواد القصيري الرومي: ١١٥٨، دارالنشر شركة انتشارات علمي فرهنكي، ط ١، ١٣٧٥ ش.

(٢٤) فصوص الحكم، محمد دوواد القصيري الرومي: ١١٢١، دار النشر شركة انتشارات علمي فرهنكي، ط ١، ١٣٧٥ ش.

(٢٥) املي، مصدر سابق: ٣٢٧.

(٢٦) انظر: جهانكيري، محسن، محيي الدين بن عربي، تعريب: عبد الرحمن العلوي، دار الهادي، ط ١، بيروت، ٢٠٠٣: ٤٥٨.

(٢٧) ابن العربي، محيي الدين، الفتوحات المكية ٣: ٨٧.

(٢٨) جهانكيري، محسن، محيي الدين بن عربي، مصدر سابق: ٤٥٩-٤٦٠.

(٢٩) انظر: العزيمي، خديجة، الاسس الفلسفية للفكر النسوي الغربي: ٨٩.

(٣٠) انظر: شبستري، محمد مجتهد، الفقه الاسلامي وحقوق المرأة رصد للمنطلقات الفلسفية، مجلة: نصوص معاصرة، العدد ٦: ١٤-١٧. راجع في ذلك ايضاً: سروش، عبد الكريم، مسألة المرأة بين القوانين الفقهية ونظام القيم الاخلاقية، العدد ذاته: ٢٢.



## مقاربة معرفية في منهجة دراسة المرأة

- (٣١) انظر: الرشيد، بو شعير، المرأة في ادب توفيق الحكيم، دار الاهالي، ط ١، دمشق، ١٩٩٦: ٥٦.
- (٣٢) انظر: علاوشيش، ا. امال، مقال: المرأة في مراة الفلسفة، اصدار: الفلسفة والنسوية، اشراف وتحرير: د. علي عبود المحمداوي، الرابطة العربية الاكاديمية للفلسفة، ط ١، ٢٠١٣: ٤١.
- (٣٣) انظر املي مصدر السابق: ٤٤.
- (٣٤) امام عبد الفتاح امام، الفيلسوف المسيحي، مكتبة مدبولي، الطبعة الاولى، ١٩٩٦، القاهرة: ٥١.
- (٣٥) المصدر السابق: ٥٣.
- (٣٦) الراسخي، فروزان، المرأة من خلال المعرفة الشهودية، مجلة: المحجة، العدد ١٢، معهد المعارف الحكمية، ٢٠٠٤: ١٤٧-١٤٨.
- (٣٧) امام عبد الفتاح امام، الفيلسوف المسيحي: ٥١.
- (٣٨) سورة البقرة الآية: ٣٥-٣٦.
- (٣٩) سورة البقرة الآية: ٣٧.
- (٤٠) سورة التحريم الآية: ١١.
- (٤١) سورة النمل الآية: ٢٩-٣٥.
- (٤٢) سورة الأحزاب الآية: ٣٢.
- (٤٣) انظر امام، عبد الفتاح امام، الفيلسوف المسيحي: ١١٧.
- (٤٤) مهريزي، مهدي، مقال: فقه المرأة: اشكالاته وتحدياته... مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، الطبعة الاولى، بيروت، ٢٠٠٨: ١٣٧.
- (٤٥) الميلاد، زكي، الاسلام والمرأة (تجديد التفكير الديني في مسألة المرأة)، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، الطبعة الاولى، ٢٠٠٨، بيروت: ٢٣٣-٢٣٤.
- (٤٦) انظر المصدر السابق: ٢٣٥.

